العرب
الأربعاء 2021/07/07
السنة 44 العدد 12112

خذوا عراقكم الجديد معكم وارحلوا

فاروق يوسف
كاتب عراقي

مع اليوم الأول من أيام الاحتلال الأميركي غزت العراق ثقافة جديدة قائمة على فكرة التنكّر للعراق التاريخي وعلى القطيعة مع المحيط العربي.

كانت تلك الفكرة جزءا من ثقافة الاحتلال التي تم تكليف عدد من المثقفين العراقيين بنشرها وترويجها بين صفوف المثقفين أولا ومن ثم توزيعها على شكل جمل قصيرة مثل حبوب دواء بين الجماهير.

كان هناك عراق جديد ينتظر الجميع. عراق سيكون افتراضيا إذا ما أخذنا في الاعتبار المسافة الزمنية التي تفصلنا عن سنة الاحتلال الأولى. كان ذلك العراق هو العراق المحرّر. سؤال سيكرّره العراقيون ببلاهة يغلب عليها التفكير المعتوه "احتلال أم تحرير؟" وسيظل البعض يطلق على واقعة الاحتلال تسمية "التغيير" هربا من الاعتراف بالحقيقة.

مثقفو الاحتلال استنفدوا أساليبهم من أجل فرض العراق الجديد غير أنهم لم يتمكنوا من الانتصار على الحقيقة التي لا يمكن إخفاؤها، فالعراق الجديد هو عراق الفقر والبطالة والتمييز والطائفية والقهر والكراهية

سينسى العراقيون سؤال التحرير والاحتلال وسط سيل الأزمات التي ضربتهم. وهي أزمات عاشوها وهم يقفون على حافات الموت قتلا أو كمدا أو جوعا.

سينسى العراقيون كل شيء يجعلهم على صلة بماضيهم، كما لو أنهم صاروا يخشون الالتفات إلى الوراء كما أنهم كرهوا النظر في المرآة لئلا يروا أنفسهم في حلّتهم الجديدة وهي حلّة زائفة أو ينظروا إلى وجوههم التي لم تعد تذكر بوجوههم الحقيقية. غابت وجوههم كما غابت كل مظاهر وأسرار الحياة.

كانت هناك خدعة مبيّتة. بلد كُتب عليه الموت ليكون حاضنة لبلد لا حياة له. بلد سيُقدر له أن يكون آخر. ذلك هو البلد الذي سيعادي تاريخه وسيكتب مؤرخو الاحتلال أن ما جرى في العراق لم يجر في أي بلد سبقه إلى محنته. أليست الخيانة ظاهرة إنسانية عالمية؟

وقف عراقيون طوابير من أجل أن يعرفوا بأنفسهم كونهم خونة. ما هذه الوظيفة التي لا يتمكن إنسان من مقاومة الاشمئزاز منها والشعور بالقرف في مواجهتها. أكان تطبيع الخيانة قرارا أميركيا؟ بعد تطبيع الخيانة كان على العراق الجديد أن يشهد أسوأ لحظات تاريخه وهي اللحظة التي بدأ فيها تطبيع الفساد بعد أن أُطلقت يد نوري المالكي في التصرف بأموال العراق التي بدت كما لو أن خزائنها لا تفرغ.

كان العراق الجديد يتشكل من لحظة نسيان العراق التاريخي. لم تعد بلاد الرافدين التي ارتبطت بالمدن التاريخية وفي مقدمتها بغداد وأور والكوفة والبصرة والموصل موجودة. الوادي الذي يجري فيه النهران الخالدان دجلة والفرات لم يكن إلا كذبة جغرافية. ذلك ما صار يردده دعاة العراق الجديد الذين لا يُعقل أنهم لم يدركوا حجم فشلهم في تثبيت مفردات ثقافتهم التي هي ثقافة المحتل التي كُلفوا بالترويج لها.

"لقد فشل الخونة في تطبيع خيانتهم"؟

ما هذا الحكم المتفائل. ولكنّ عراقا جديدا لم يولد بعد أكثر من ثماني عشرة سنة من اللعب بالأوراق وخلطها. حتى بعد أن تم تحطيم آثار النمرود وسرقة آثار أور واللعب بمحتويات المتحف العراقي وإهانة شارع الرشيد من خلال تحويله إلى مزبلة وقطع رأس أبي جعفر المنصور لا يزال هناك عراق صعب. يُخيّل إلينا أنه لم يمت.

لقد استنفد مثقفو الاحتلال أساليبهم من أجل فرض العراق الجديد غير أنهم لم يتمكنوا من الانتصار على الحقيقة التي لا يمكن إخفاؤها. فالعراق الجديد هو عراق الفقر والبطالة والتمييز والعزل والطائفية والقهر والكراهية. هو عراق يظل مقيما على القشرة ولا يمد جذوره في الأرض التي ترك الأجداد في أعماقها أنهارا من العاطفة. تلك عاطفة لا يمكن اللعب بمفردات أبجديتها. كل مفردة هي حكاية مثلما كل درب من دروب بغداد هو نهر يكشف عن وجوه الأقرباء الذين تركوا آثار أقدامهم ماثلة كما الأغنيات.

لا يشبه العراق نفسه. ذلك هو العراق الذي يتغيّر بعناصره ومزاج ناسه وعصف عواطفه التي تنبعث من داخله الذي يسكنه العراقيون المولعون بالشغب الروحي. بلد الملل والنحل. البلد الذي اخترع المذاهب الدينية ولعب بالعقول بخفة وخفاء إخوان الصفا. البلد الذي اخترع الجماعات السرية التي تقاوم من أجل الإعلاء من شأن العقل هو الذي يُقاوم من أجل أن لا يخسر شيئا من مساحة تاريخه.

كان هناك دائما عراق جديد. عراق هو نفسه وهو دائما ذلك العراق الآخر الذي يجيء من الغيب. السد الذي تصطدم به نفايات الاحتلال التي لن تتمكن من تحريك سنتمتر واحد منه من مكانه. لقد تواطأ الكثيرون مع فكرة الخيانة وخيالها غير أنهم لم يربحوا إلا الخراب. العراق الجديد هو صورة قبيحة عن بلد لا وجود له. لذلك يتمنى العراقيون لو أن عملاء المحتل الأميركي أخذوا عراقهم الجديد معهم ورحلوا.

لا تطبيع أوروبيا مع النظام السوري

خيرالله خيرالله
إعلامي لبناني

ليس في الإمكان الحديث عن تطبيع قريب أو بعيد بين النظام السوري من جهة والاتحاد الأوروبي من جهة أخرى.

بعيدا عن الكلام التافه الذي يصدر عن بعض السياسيين أو المعلّقين اللبنانيين، تقول خلاصة تقرير نشره الاتحاد الأوروبي على موقعه الرسمي إنّ "التطبيع غير وارد مع النظام إلا إذا دخل عملية انتقالية ذات طابع سياسي استنادا إلى قرارات الأمم المتحدة. يشمل ذلك إنهاء القمع وإطلاق عشرات الآلاف من المعتقلين السياسيين في سجونه".

تؤكد كل كلمة في هذه الخلاصة استحالة عودة المجتمع الدولي إلى إقامة علاقات طبيعية مع النظام. يعود ذلك إلى أنّ طبيعة النظام هي طبيعة قمعية من جهة وإلى أنه يرفض أي تقيّد بقرارات الشرعية الدولية من جهة أخرى. هذا نظام يظنّ أن في استطاعته دائما التحايل على أي اتفاق يعقده مع هذا الطرف أو ذاك. ليس مستعدا لتقديم أيّ تنازل عندما يكون قويًا وليس مستعدا لذلك عندما يكون ضعيفا. كلّ ما يهمّه إعطاء انطباع إلى المجتمع الدولي بأنّه قويّ في حين أنّ هذا المجتمع يعرف تماما أنّه أضعف بكثير مما يعتقد. لو كان النظام السوري قويًا ويمتلك ذرة من الحكمة، هل كان أقدم على حماقة تغطية جريمة اغتيال رفيق الحريري في العام 2005، وهي الجريمة التي أخرجته من لبنان لمصلحة إيران؟

فنّد التقرير الأوروبي نقطة بعد نقطة ما سمّاه "الأوهام" التي يعيش النظام السوري في ظلّها ويروّج لها وهي الآتية: "سوريا آمنة لعودة اللاجئين، الاتحاد الأوروبي والغرب يشنّان حربا اقتصادية على سوريا، الاتحاد الأوروبي يعدّ لخطوات تطبيع مع النظام السوري، النظام لم يلجأ إلى أي هجمات بالسلاح الكيمياوي، الغرب يقف وراء التنظيمات الإرهابية، الثورة (التي انطلقت في العام 2011) كانت منذ البداية مؤامرة أجنبية".

يكشف التقرير مستخدما الوقائع أنّ كلّ ما يروّج له النظام السوري لا علاقة له بالحقيقة من قريب أو بعيد. لا حاجة إلى الدخول في تفاصيل التقرير الذي يجسم مسألة التطبيع مع النظام. يظلّ المهمّ في ما ورد فيه عن أن العالم، في مقدّمه الاتحاد الأوروبي يعرف تماما ما هو النظام السوري وأنّ هذا النظام الأقلوي لا يمتلك أي شرعية من أي نوع وذلك منذ اليوم الأول لقيامه في العام 1970.

كان الفارق بين حافظ الأسد وابنه بشّار أن الأوّل كان يتقن تماما لعبة التوازنات ويعرف أين الحدود التي عليه التوقّف عندها.

الأهمّ من ذلك كلّه، أن حافظ الأسد كان يمتلك حليفا مهمّا في شخص صدّام حسين، البعثي الآخر الذي وضع نفسه في خدمته طوال الوقت بفضل عقله التبسيطي والريفي. هذا العقل التبسيطي والريفي للرئيس العراقي بين 1979 و2003 أخذ البلد إلى حرب طويلة مع إيران بين 1980 و1988 استغلّها حافظ الأسد أفضل استغلال. ما لم يحقّقه الأسد الأب طوال الحرب العراقية – الإيرانية، حقّقه بعد اجتياح العراق للكويت في 1990. قبض ثمن الوقوف مع الأميركيين في حرب تحرير الكويت. حصل على ضوء أخضر في لبنان وأخرج حليف صدّام حسين، وقتذاك من قصر بعبدا. لم يكن هذا الحليف سوى الرئيس اللبناني الحالي ميشال عون الذي قبل لاحقا، في 2016، أن يصبح رئيسا للجمهورية بصفة كونه مرشّح "حزب الله" وأن ينتقل مع صهره جبران باسيل إلى نادي المعجبين ببشّار الأسد وإنجازاته في سوريا!

يُفترض في تقرير الاتحاد الأوروبي أن يزيل الغشاوة التي يعاني منها عدد كبير من اللبنانيين يظنون أن العالم مستعد لإعادة الاعتبار إلى النظام السوري. هؤلاء لا يعرفون شيئا لا عن أوروبا ولا عن الإدارة الأميركية الحاليّة. ثمّة حاجة إلى التذكير بأنّ وزير الخارجية الحالي أنتوني بلينكن اعترض عندما كان يعمل مع إدارة باراك أوباما على تراجعها عن توجيه ضربة إلى النظام السوري بعد استخدامه السلاح الكيمياوي في حربه على شعبه في منطقة الغوطة القريبة من دمشق. كان ذلك في آب – أغسطس من العام 2013. لا يزال بلينكن، استنادا إلى ما ورد على لسانه في إحدى المقابلات الصحافية، يعيش هاجس التراجع عن الردّ على النظام السوري بعد لجوئه إلى السلاح الكيمياوي.

النظام السوري الذي وضع له الاتحاد الأوروبي شروطا كي يعيد تأهيل نفسه لديه مهمة وحيدة، العنوان الوحيد لهذه المهمة تفتيت سوريا كي لا تقوم لها قيامة في يوم من الأيام

خرج التقرير الأوروبي بخلاصة خاصة به في ما يتعلّق بالعلاقة مع النظام السوري. ثمّة خلاصة أخرى لا يمكن تجاهلها. تتعلّق هذه الخلاصة بالمهمّة التي نذر النظام السوري نفسه من أجلها والتي تتمثّل في الانتهاء من سوريا التي عرفناها. يستطيع هذا النظام أن يحلم طويلا بأنّه سيعود إلى لعب دور الوسيط بين العرب وإيران، كما فعل حافظ الأسد طوال سنوات. يستطيع أن يحلم أيضا بالعودة إلى لبنان عسكريا وأمنيا. يستطيع حتّى أن يحلم بالعودة إلى سوريا نفسها الواقعة تحت خمسة احتلالات هي الإسرائيلي والإيراني والتركي والروسي والأميركي...

يستطيع النظام السوري أن يحلم مقدار ما يشاء. ما لا يستطيعه هو العثور على شرعيّة ما. ليس هذا النظام في نهاية المطاف سوى وليد انقلاب عسكري في الثامن من آذار – مارس 1963، وهو انقلاب ما لبث أن استولى عليه الضباط العلويّون في 23 شباط – فبراير 1966 تمهيدا لتفرّد حافظ الأسد بالسلطة ابتداء من 16 تشرين الثاني – نوفمبر 1970... قبل أن يصبح أوّل رئيس علوي لسوريا في شباط – فبراير 1971.

لدى النظام السوري، الذي وضع له الاتحاد الأوروبي شروطا كي يعيد تأهيل نفسه، مهمّة وحيدة. العنوان الوحيد لهذه المهمّة تفتيت سوريا كي لا تقوم لها قيامة في يوم من الأيّام وذلك على غرار ما حصل في العراق حيث يصعب الحديث عن إعادة توحيد البلد منذ الاجتياح الأميركي في العام 2003.

يستطيع النظام السوري أن يحلم طويلا بإعادة تأهيل نفسه يوما. سيبقى الحلم حلما، لا لشيء سوى لأن طبيعته القمعيّة تتعارض تماما مع أيّ تغيير حقيقي في العمق لا أكثر ولا أقلّ. من دون قمع لا وجود لمثل هذا النظام الذي ارتضى شنّ كل أنواع الحروب على شعب بكامله لا يريد أكثر من حدّ أدنى من الكرامة!